

الأستاذة: زينب قريّس

المقياس: الأدب الشعبي العربي القديم

المستوى: الثانية ماستر أدب قديم

عنوان المحاضرة: الأمثال الشعبية

تحتل الأمثال الشعبية مكانة هامة بين أحاديث الناس في الحياة اليومية، فقد كانت - وما زالت - تفرض نفسها بالقوّة، وهذا على عكس أشكال الأدب الشعبي الأخرى، حيث أنّ البعض منها مرتبط بمناسبات معيّنة. فهو حاضر دوماً في الكلام يزيّنه ويقرب معناه، لذلك قيل " بالمثل يتضح المقال".

1/ تعريف المثل الشعبي:

أ - لغة:

للمثل معان لغوية كثيرة، نذكر منها ما يلي:

- التسوية، المماثلة، الشبه والنظير، فقد جاء في لسان العرب: "مَثَلٌ، مِثْلٌ: كلمة تسوية، يقال: هذا مِثْلُه ومِثْلُه كما يقال شَبَّهه وشَبَّهه، هو مثله في كذا فهو مساو له في جهة دون جهة، والمِثْل: الشبه، يقال: مِثْل ومِثْل وشَبَّه وشَبَّه بمعنى واحد".
وجاء في مقاييس اللغة: "مَثَلٌ: الميم والثاء واللام أصل صحيح، يدلّ على مناظرة الشيء. وهذا مِثْل هذا، أي نظيره. والمِثْلُ: المثلُ أيضاً كَشَبَّه وشَبَّه".

وقد ورد في محكم التنزيل قوله "عزّ وجلّ في الآية 17 من سورة البقرة:

«مَثَلُهُمْ كَمِثْلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ»

فمعنى المثل في هذه الآية الكريمة هو "الشبه"، حيث شَبَّه الله تبارك وتعالى "المنافقين في اشترائهم الضلالة بالهدى وصيروهم بعد البصيرة بالعمى، بالذي استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وعن شماله وتأنس بها، فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره وصار في ظلام شديد لا يبصر شيئاً.

ولا يهتدي".

ب - اصطلاحا:

جاء تعريف المثل في كتاب شرح الفصيح للمرزوقي بأنّه " جملة من القول مقتضبة من أصلها، أو مرسلة بذاتها تتسم بالقبول، وتشتهر بالتداول، فتنتقل عمّا وردت فيه إلى كلّ ما يصحّ قصده، من غير تغيير يلحقها في لفظها". أي هو قول موجز، متداول ومنتشر بين الناس، ويبقى محافظا على صيغته الأصلية مهما تعدّدت المواقف.

وجاء في كتاب التحوال في كتب الأمثال بعد عرض مجموعة من تعريفات المثل تعريفا جامعاً له هو:

" المثل قول موجز، سائر مشهور، باق على مرّ الدهور، عاكس تجارب الأمم والشعوب، واصف لنا مختلف الدروب، بلفظ مرغوب، ومعنى مطلوب، لائط بالقلوب، تلذّ الآذان لسماعه، تتناقلوه العامة والخاصة، فيه وعظ وزجر، حسن التشبيه لكلّ عالم وفقهه، مفتاح للقول ومصباح للعقل. هذا عن المثل عامة أمّا المثل الشعبي تحديدا فهو فن قولي موجز بليغ، بلغة عامة الناس، يعبر عن الحياة الشعبية بصدق وعفوية، ويذاع بين الناس عن طريق الرواية الشفاهية. إنه "فكرة وطريقة تفكير في الآن نفسه، فكرة لأنّه يلخص فكرة عاشتها الجماعة، وطريقة تفكير لأنّه يوضّح نظرة الجماعة إلى ما يمرّ بها من تجارب وما تؤمن به من معتقدات".

2/ نشأة الأمثال الشعبية:

الأمثال الشعبية قديمة قدم الإنسان، والبحث في أصلها ليس بالأمر الهين " فمن العسير إن لم نقل من المتعذر الجزم بتاريخ نشأة الأمثال، ولكن لما كانت الأمثال وليدة تجارب الناس في تعامل بعضهم مع بعض، فمن المحقّق أنّها بدأت تظهر مع تكوّن المجتمعات البشرية الأولى " فنحن إذا تأملنا الحياة بوصفها صنوفا شتى من المدركات والأحوال المعيشة، فإنّنا نلاحظ أنّ هذه المدركات والأحوال تنتهي بما نسمّيه التجربة " ولما كانت تجارب الإنسان تشغله إلى حدّ كبير، فإنّ الإنسان لا يعيش في عالمه الكبير، بقدر ما يعيش في عوالمه الصغيرة، وكلّما كان الإنسان في هذه التجارب وأحسن بوقعها في نفسه، كان أشدّ ميلا للتعبير عنها وعن نتائجها".

لقد عرف العرب القدامى الأمثال الشعبية وضمّنها في أحاديثهم، وما وصل إلينا من أمثالهم في البداية كانت عربية فصيحة ، لأنّ اللغة العربية – آنذاك – كانت تسود الناس سيادة كاملة، أي في عصرنا الأول، لذلك كانت الأمثال كلّها تنبع من معين واحد هو الفصحى، وعبر الزمن ظهرت لهجات عامية إلى جانب الفصحى، فكان ثمة أمثال تقال بالفصحى، وأخرى تؤدّى بالعامية. وعموما فالمثل الشعبي كالمثل الفصيح نشأ من تجارب إنسانية فردية أو اجتماعية، عميقة الجذور في شعب معيّن.

ورغم ما وصل إلينا من أمثال العرب القدامى في الجاهلية أو الإسلام، إلّا أنّه في الأغلب يصعب علينا معرفة تاريخ نشأتها تعريفا دقيقا، وهذا يرجع لمجهولية المؤلف أولا، ولكون المثل يعبر عن التجربة الإنسانية والسلوك الإنساني الصالح لكلّ الناس ولكلّ زمان ومكان. غير أنّ حفاظ الأمثال على صيغتها الأولى قد يسهّل ولو بالشيء السير معرفة وتحديد زمان ومكان المثل الشعبي، من خلال السمات أو القرائن الدالة في نصّه مثل اسم قبيلة أو اسم شخص أو حدث تاريخي، مثل: أشأم من البسوس، أشأم من داحس، حديث الأبرش والزباء، ألحن من الجرادتين، من دخل ظفار حمّر... إلخ.

ومع مجيء الإسلام ساهم النص القرآني والحديثي في تشكيل المثل الشعبي العربي، فأصبح بإمكاننا تمييز بعض الأمثال من خلال الفكرة أو الأسلوب المقتبس من النص الديني مثل قولهم في هذا المثل: أتبّ من أبي لهب، أو قول "أبي بكر": لا طامة إلّا فوقها طامة.

3/ مصادر الأمثال الشعبية العربية القديمة:

- النكتة أو الحكاية نحو قولهم " حديث خرافة" ولهذا المثل حكاية معروفة.
- خلاصة تجارب وممارسات عديدة .

- شعراء العرب وحكمائهم، وتحرص كتب الأمثال في هذا النوع إلى إرجاعها لقائلها مثل ربّ أخ لم تلده أمّك لـ لقمان بن عاد".

- حوادث تاريخية بعينها، ويحتفظ المثل بشواهد للحادثة، ثم يصبح بعد ذلك جاريا.
- النصوص الفصيحة.

- الشعوب والثقافات الأخرى من خلال التعامل معهم.

4/ أقسام الأمثال الشعبية العربية القديمة:

أ - المثل الموجز: وهو القول السائر الموجز، الذي يشتمل على معنى صائب، وتشبه حالة ضربه بالحالة الأولى التي قيل فيها وورد عليها.

ب - المثل القياسي: وهو ذلك السرد الوصفي أو القصصي الذي يستهدف توضيح فكرة ما، أو البرهنة عليها عن طريق التشبيه أو التمثيل الذي يقوم على المقارنة أو القياس.

ت - المثل الخرافي: وهو تلك الكلمات الموجزة السائرة التي أجراها العرب على السنة الحيوانات، أو بنوها على قصص خرافي نسجوه حوله.

5/ خصائص المثل الشعبي العربي القديم:

• الشيوع:

ينتشر المثل الشعبي بين الناس بشكل واسع وكبير، فقد كان العرب يشبهون به كل شيء يذيع وينتشر، حتى قالوا "أَسِيرٌ مِنْ مَثَلٍ".

ويرجع هذا الشيوع المذهل إلى سهولة تداوله، وبساطة مضمونه، وإلى صدق تعبيره عن آلام الجماعة وآمالها، فهو من الشعب وإلى الشعب وكل له حق في استعماله.

• الديمومة:

لم تقو الكثير من الموروثات الشعبية على الاستمرار والحفاظ على تواجدتها في المجتمع، إلا المثل، فما زال يافعا، لم يصبه الدهر ببلى، لانفصاله عن الملابس الأولى التي نشأ منها، واهتمامه بجوهر السلوك الإنساني المشترك بين

جميع الناس، فكان بذلك أعمّ من الشعر والقصة ومن جميع أشكال التعبير الشعبية، لأنّه " لا يهتم بالظاهرة في حدّ ذاتها، وإنّما يهتمّ بالسلوكات الكامنة وراء الظاهرة " .

• البلاغة:

نجد الأمثال الشعبية العربية في منتهى البلاغة، رغم بساطة العقلية الشعبية ، وذلك لاحتوائها على ألوان البيان والبديع كالتشبيه والاستعارة والكناية والإيجاز والسجع والجناس والطباق .

ومن بلاغة الأمثال الشعبية، استعمال **أسلوب المفارقة** الذي يكشف عن التناقض الحاصل في تصرّفات بعض الناس بطريقة تهكمية ساخرة، وطريقة فنية أدبية ذكية لبقة في الإبانة عن آراء ومواقف برؤية خاصة .وهي أسلوب نقدي مضحك هازئ، هادف وتعبير عن انفعال معيّن كعدم الرضى بتناقضات الحياة وتصرّفات الناس، وكشف عن الحسرة والمرارة بطريقة غير مباشرة ، قصد الإصلاح والتقويم والتعبير نحو الأحسن .

6/ أبعاد الأمثال الشعبية:

لا تقال الأمثال الشعبية عبثا في الكلام، ولا من أجل تزيينه وتنميقه، إنّما يؤدّي وظائف، ويحمل وراءه أبعادا مختلفة هي:

• البعد الديني :

يعدّ الدين من بين المصادر المؤثرة بقوة في المثل الشعبي العربي، وبالتالي لا يمكن فصلهما عن بعضهما البعض؛ فالإسلام مرجعية قوية للمثل، يمدّ بالنظرة الصائبة والمعاني السمحة، بل حتى بالألفاظ العذبة والموحية، من أجل خدمة الفرد وتكوينه تكوينا حسنا، والمثل الشعبي يقوم بتثبيت دعائم الإسلام ومبادئه بأسلوب خاص .

• البعد الاجتماعي:

الأمثال الشعبية هي موسوعة من الأفكار والمعلومات والتجارب والخبرات الناتجة عن احتكاك الفرد بالجماعة، وتفاعلاته المستمرة مع بيئته، تصور " العلاقات القائمة بين الناس في تعاملهم أيام المعسرة والميسرة، والتفاهم حول مقدسات وقضايا مشتركة تجعل منهم وحدة متميزة لها خصوصياتها المحلية " . وتوضح دور هذه العلاقات وضرورتها في بناء المجتمع، كما تعرّف الآخرين بأعراف وتقاليد الشعب .

• البعد التربوي الأخلاقي:

يعدّ الدور التربوي الأخلاقي العنصر المهيمن على جلّ الأمثال الشعبية، حيث تؤدّي داخل المجتمع رغم بساطتها دور المربيّ الناصح المتشبع بتجارب الحياة وخبراتها، يهدف إلى زرع وتثبيت القيم والأخلاق الفاضلة والدعوة إلى التمسك بها، ونزع الأخلاق المنبوذة والسلوكات المستهجنة والتحذير من عواقبها، إمّا بالتعبير المباشر وإمّا عن طريق التلميح والتّرميز .

• البعد النفسي:

للأمثال الشعبية قيمة نفسية كبيرة، كونها نابعة من تجارب نفسية عميقة، تكشف عن تأثر قائلها بموضوع ما، أو عن معاناتهم من بعض مشاكل الحياة، لها تأثير قوي على النفوس وتغطي مختلف الحاجات والرغبات والطبائع والميولات.

قد يعاني الإنسان في حياته من ضغوطات كبيرة، يفرضها عليه المجتمع والبيئة المحدودة التي يعيش فيها. فيعمل المثل الشعبي على تخليصه من قيدها، من خلال حرية التعبير عن وجهة النظر دوف خوف أو قلق. مما يوفر لو قدرا كبيرا من الراحة النفسية. تقول "نبيلة إبراهيم":

"الأمثال بالنسبة لنا عالم هادئ نركن إليه حينما نودّ أن نتجنّب التفكير الطويل في نتائج تجربتنا، ونحن نذكرها بحرفيتها إذا كانت تتفق مع حالتنا النفسية، بل إنّنا نشعر بارتياح لسماعها وإن لم نعش التجربة التي يلخصها المثل".